

(مفهوم الضمير عند الإمام الغزالي وحقيقته وبواعثه)

الباحث: السعودي يونس السيد

الملخص باللغة العربية:

موضوع هذا البحث هو: (مفهوم الضمير عند الإمام الغزالي وحقيقته وبواعثه)، وهو يسعى إلى بيان الضمير عند الإمام الغزاليّ والجوانب المتعلقة به من: الوازع الديني والأخلاقي، والنية، والقدرة، والألطف، والنفس، والعقل.

وقد تمثلت أهداف هذه الدراسة في: بيان مفهوم الضمير عند الإمام أبي حامد الغزالي، وحقيقته، وبواعثه، وعلاقته بالقلب، والنفس، والروح، والعقل. ودوره في علاج أمراض القلوب.

وقد اعتمدت في سبيل تحقيق هذه الأهداف على المنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي الاستنباطي؛ فقمْتُ بتحليل كتب الإمام الغزالي فيما يتعلق بموضوع البحث بشكل مباشر أو غير مباشر والقيام بتمحيصها. ودراسة القضايا ذات الصلة بالضمير عند الإمام الغزالي: بداية من حياة الإمام الغزالي، مروراً ببيان مفهوم الضمير عند أبي حامد الغزالي، وبواعثه.

وقد جاء البحث في: مقدّمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث: اشتملت المقدمة على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وإشكالية البحث، وأهدافه، والمنهج المتبع فيه، وتكلمت في التمهيد عن ترجمة الغزالي. وخصّصت المبحث الأول لدراسة: مفهوم الضمير وحقيقته عند الغزالي. وتكلمت في المبحث الثاني عن: بواعث الضمير عند الغزالي وآفاقه، وعرضت في المبحث الثالث ل: دور الضمير بين الوقاية والعلاج عند الإمام الغزالي.

كما ضمّنت البحث خاتمة لبيان أهم نتائج البحث التي توصلت إليها مع ذكر بعض التوصيات والمقترحات. وكانت أهم هذه النتائج: أنّ مفهوم الضمير عند أبي حامد الغزالي لم يخرج عن مفهومه عند الأشاعرة.

وذيلت البحث بفهرس المصادر والمراجع، وفهرس موضوعات البحث.

والله وليّ التوفيق

Summary

The subject of this research is (The concept of conscience according to Imam Al-Ghazali, its reality, and its motives), and it seeks to clarify conscience according to Imam Al-Ghazali and the aspects related to it: religious and moral motives, intention, ability, kindness, soul, and reason.

The objectives of this study explain the concept of conscience according to Imam Abu Hamid Al-Ghazali, its reality, its motives, and its relationship with the heart, soul, spirit, and mind and its role in treating heart diseases.

In order to achieve these goals, I relied on the inductive method and the deductive analytical method. I analyzed the books of Imam Al-Ghazali in relation to the subject of the research, directly or indirectly, and examined them. And a study of issues related to conscience according to Imam Al-Ghazali: beginning with the life of Imam Al-Ghazali, passing through an explanation of the concept of conscience according to Abu Hamid Al-Ghazali, and its motives.

The research consisted of an introduction, a preface, and three sections: The introduction included the importance of the topic, the reasons for choosing it, the problem of the research, its objectives, and the methodology followed in it. In the introduction, I spoke about Al-Ghazali's translation. The first section was devoted to studying: the concept of conscience and its reality according to Al-Ghazali. In the

second section, I talked about the motives and horizons of conscience according to Al-Ghazali, and in the third section, I presented the role of conscience between prevention and treatment according to Imam Al-Ghazali.

The research also included a conclusion to explain the most important results of the research that I reached, mentioning some recommendations and proposals. The most important of these results was that the concept of conscience according to Abu Hamid Al-Ghazali did not deviate from its concept according to the Ash'aris.

The research was appended with an index of sources and references, and an index of research topics.

God grants success

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين؛ سيدنا محمد ﷺ، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وعلى صحابته الكرام الغر الميامين، وعلى من اهتدي بهديه إلى يوم الدين. وبعد،،،

فتربية الضمير وتقوية الوازع الديني في نفوس الناس، فيه السعادة، وبدونه لن يكون إلا مزيداً من الشقاء والتعاسة. ومن العلماء الذين يشكل أثرهم العلمي إسهاماً للبشرية، وما زالت آثاره ماثلة إلى يومنا الحاضر: الإمام الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)؛ لذلك اخترت أن يكون موضوع: (مفهوم الضمير عند أبي حامد الغزالي وحقيقته وبواعثه) مادة لهذا البحث.

وترجع أهمية هذا البحث في كشفه عن الضمير في فكر الإمام الغزالي. والإجابة على حقيقة فهمه للضمير وبواعثه. وتتمثل مشكله البحث في: محاولته للكشف عن معنى الضمير ودوره في توجيه السلوك وإصلاح النفوس. وبالتالي فهو يهدف إلى: بيان مفهوم الضمير عند الإمام الغزالي. وبيان كيفية تحقق السعادة عن طريق بناء الضمير الحي.

سوف اعتمد بمشيئة الله ﷻ في هذه الدراسة على: المنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي الاستنباطي؛ الذي يقوم على تحليل كتب الإمام الغزالي فيما يتعلق بموضوع البحث بشكل مباشر أو غير مباشر والقيام بتمحيصها.

خطة البحث:

لقد اشتمل هذا البحث علي: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهارس، وذلك على النحو التالي:

أولاً: المقدمة:

واشتملت على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وإشكالية البحث، وأهدافه، والمنهج المتبع فيه، والدراسات السابقة عليه.

ثانياً: التمهيد: اشتمل على: ترجمة أبو حامد الغزالي.

المبحث الأول: مفهوم الضمير وحقيقته عند الغزالي:

أولاً: مفهوم الضمير في اللغة والاصطلاح.

ثانياً: مفهوم الضمير في القرآن الكريم.

ثالثاً: مفردات تتشابه مع مفردة الضمير.

(أ) مفهوم النفس في اللغة وعلاقته بمفهوم الضمير:

(ب) مفهوم العقل في اللغة وعلاقته بمفهوم الضمير:

(ج) مفهوم الوازع في اللغة وعلاقته بمفهوم الضمير:

المبحث الثاني: بواعث الضمير عند أبي حامد الغزالي:

أولاً: الضمير والنية في فكر الإمام الغزالي:

ثانياً: مفهوم الضمير بين القدرة الإلهية القديمة والقدرة الحادثة عند الغزالي:

المبحث الثالث: دور الضمير بين الوقاية والعلاج عند الإمام الغزالي.

رابعاً: الخاتمة:

وتتضمن أهم نتائج البحث التي توصلت إليها مع ذكر بعض التوصيات والمقترحات.

خامساً: الفهارس: وتتضمن فهرس المصادر والمراجع، وفهرس موضوعات البحث.

والحمد لله رب العالمين

وصلي الله وسلم على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين

التمهيد: ترجمة أبو حامد الغزالي: عصره، وحياته، وثقافته، ومنهجه.

تزخر المكتبة الإسلامية بالحديث عن الإمام الغزالي؛ لذلك فليس الغرض من هذا التمهيد الترجمة المفصلة له، وإنما معرفة ما يلزم من ذلك؛ ليكون لنا مدخلاً إلى فهم الضمير عنده. وسوف نتحدث عن ذلك فيما يلي:

اسمه:

هو: أَبُو حَامِدٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَحْمَدَ الْغَزَالِي الطُّوسِي النِّسَابُورِي الصُّوفِي الشَّافِعِي الْأَشْعَرِي، أحد أعلام عصره وأحد أشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري^(١).

كنيته ونسبه:

يُكْنَى بِأَبِي حَامِدٍ لَوْلَدَ لَهُ مَاتَ صَغِيرًا، وَيُعْرَفُ بِـ «الْغَزَالِي» نسبة إلى صناعة الغزل، حيث كان أبوه يعمل في تلك الصناعة، ويُنسب أيضاً إلى «الغزالي» نسبة إلى بلدة غزالة من قرى طوس، وقد قال عن نفسه: «التَّاسُ يَقُولُونَ لِي الْغَزَالِي، وَلَسْتُ الْغَزَالِي، وَإِنَّمَا أَنَا الْغَزَالِي مَنْسُوبٌ إِلَى قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا غَزَالَةٌ»^(٢).

ألقابه:

لُقِّبَ الْغَزَالِي بِأَلْقَابٍ كَثِيرَةٍ فِي حَيَاتِهِ، أَشْهَرُهَا لِقَب «حُجَّةُ الْإِسْلَام»، وله أيضاً ألقاب مثل: زين الدين، ومُحَمَّدُ الدِّين، والعالم الأوحَد، ومفتي الأُمَّة، وبركة الأَنَام، وإمام أئمة الدين، وشرف الأئمة، والإمام، الْبَحْر، أَعْجُوبَةُ الزَّمَانِ^(٣).

مولده ونشأته:

وُلِدَ الْغَزَالِي عام ٤٥٠ هـ الموافق ١٠٥٨ م، في «الطابيران» من قسبة طوس، وهي أحد قسمي طوس، وقيل بأنه وُلِدَ عام ٤٥١ هـ الموافق ١٠٥٩ م. وقد كانت أسرته فقيرة الحال، إذ كان أباه يعمل في غزل الصوف وبيعه في طوس، ولم يكن له أبناء غير أبي حامد، وأخيه أحمد والذي كان يصغره سنّاً^(٤).

وفاته:

بعد أن عاد الغزالي إلى طوس، لبث فيها بضع سنين، وما لبث أن توفي يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخرة ٥٠٥ هـ، الموافق ١٩ ديسمبر ١١١١ م، في «الطابران» في مدينة طوس، ولم يعقب إلا البنات^(٥).

وروى ابن كثير أن سائلا سأله، وهو في حال الاحتضار، فقال: أوصني، فأجابه الغزالي: عليك بالإخلاص، ولم يزل يكررها حتى مات^(٦).

كتبه ومؤلفاته العلمية:

للإمام الغزالي تصانيف في غالب الفنون، حتى في علوم الحرف وأسرار الروحانيات، وخواص الأعداد، ولطائف الأسماء الإلهية، وغير ذلك. فقد ذكر عبد الغافر الفارسي (ت. ٥٢٩ هـ) وأبو بكر بن العربي (ت. ٥٤٣ هـ) وتاج الدين السبكي (ت. ٧٧١ هـ) وطاش كبري زادة (ت. ٩٦٨ هـ) المرتضى الزبيدي (ت. ١٢٠٥ هـ) الكثير من تصانيف الغزالي^(٧).

المبحث الأول: مفهوم الضمير وحقيقته عند الغزالي:

أولاً: مفهوم الضمير في اللغة والاصطلاح.

ذكر ابن فارس أن: الضَّادُ وَالْمِيمُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى دِقَّةٍ فِي الشَّيْءِ، وَالْآخَرُ يَدُلُّ عَلَى غَيْبَةٍ وَتَسْتَرٍّ. فَأَلَوُلُ قُوَّهِمْ: ضَمَرَ الْقَرْسُ وَغَيْرُهُ ضُمُورًا، وَذَلِكَ مِنْ خِفَّةِ اللَّحْمِ، وَالْآخَرُ الضَّمَارُ، وَهُوَ الْمَالُ الْغَائِبُ الَّذِي لَا يُرْجَى. وَكُلُّ شَيْءٍ غَابَ عَنْكَ فَلَا تَكُونُ مِنْهُ عَلَى ثِقَةٍ فَهُوَ ضِمَارٌ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ: أَضْمَرْتُ فِي ضَمِيرِي شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ يُغَيِّبُهُ فِي قَلْبِهِ وَصَدْرِهِ^(٨).

ثانياً: مفهوم الضمير في الاصطلاح:

مصطلح الضمير لم يكن من المصطلحات المتداولة قديماً بين العلماء، غير أن مفهومه كان معروفاً لديهم، وقد ورد معناه في مصطلحات أخرى مثل: القلب، والعقل، والنفس، والوازع؛ لذلك قالوا: (الضمير: الشيء الذي تُضمِره في ضمير قلبك)^(٩). (والضمير: ما ينطوي عليه القلب، ويدقّ على الوقوف عليه، وقد تسمى القوة الحافظة لذلك ضميراً). وضمير الإنسان: سرُّه الذي يُضمِره ويُخفيه^(١٠).

وبذلك يظهر لنا أن الضمير هو جهاز المراقبة والمحاسبة داخل الإنسان السوي، يقيم ويقيم أعماله السابقة واللاحقة، ويصدر عليها حكماً أخلاقياً بالخير أو الشر.

المبحث الثاني: بواعث الضمير عند أبي حامد الغزالي وحقيقته:

أولاً: الضمير والنية في فكر الإمام الغزالي:

هناك رابط وثيق بين أعمال القلوب وبين مجموعة من المصطلحات في فكر الإمام الغزالي، هذه المصطلحات هي: الباعث، والنية، والقصد، والإرادة، والعزم، والفعل؛ لذلك سنتناول في مبحثنا التالي مفهوم هذه المصطلحات من منظور الإمام الغزالي لها؛ ليتجلى لنا علاقتها بالضمير.

ثانياً: الضمير والعبارات المتواردة عليه عند الإمام الغزالي.

ذكر الإمام الغزالي عبارات متنوعة عبّر بها عن: الضمير، مثل: الباعث والنية والقصد والعزم والفعل.

فالباعث عند الإمام الغزالي هو المرحلة الأولى من مراحل دواعي الفعل: فالنكاح أول مراحل: الباعث، والباعث على فعل النكاح: تسكين النفس، وترويح النفس، وإراحة القلب وتقويته على العبادة^(١١). والباعث هو أول مراحل إسداء النصيحة أو الإغضاء عنها^(١٢)، ويرى الغزالي أنه يلزم أن يكون الباعث على الفعل صادقاً؛ ليتحقق صلاح دين العبد ودنياه؛ وأنه مهما قوي الباعث أوجب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوي الذي لا تردد فيه^(١٣).

ويؤكد الغزالي في حديثه عن الباعث أنّ الله ﷻ خالق للبواعث، وأنّه ﷻ مزيل للضعف والتردد عنها، ومسخر القدرة للانتهاض بمقتضى البواعث. لذلك يدعو الغزالي إلى التيقن من ذلك؛ لأنه من تيقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب ﷻ^(١٤). ويربط الغزالي بين النية والباعث؛ حين يرى أنّ معنى النية: الانبعاث للسبب الباعث والانتهاض لإجابة الداعية^(١٥).

كما يربط بين الإرادة والباعث؛ فيذهب إلى أنّ الإرادة تظهر حين يدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه؛ فنبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها. وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة. وأنه لو خلق الله ﷻ العقل المعرف بعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل؛ لكان حكم العقل ضائعاً^(١٦).

كما يرى الغزالي أنّ النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهو: حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران: علم، وعمل يتبعه؛ لأنه ثمرته وفرعه؛ لأن كل عمل لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم، وإرادة، وقدرة^(١٧).

ومعنى الإرادة عنده: (انبعاث القلب إلى ما يراه موافقاً للغرض إما في الحال أو في المال)^(١٨). والنية عند الغزالي: انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلاً وإما آجلاً.^(١٩)

وبذلك يبين الغزالي حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث، وهي بالنظر إلى القصد الأصلي؛ إما أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة. وأنّ الباعث النفسي مثل الباعث الديني أو أقوى منه أو أضعف، والإخلاص تخلص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون في باعث سواه.

ومن ذلك يظهر أنّ النية تتأثر بالباعث؛ وعليه فإنّ الضمير يتأثر بذلك كلّ؛ ففي حالة الباعث الإيماني يتأثر الضمير بداعي الإيمان الذي يحمله إلى نيات حسنة صالحة تتمثل في ذكر الله ﷻ، وعبادته، والإخلاص له ﷻ، واتباع داعي الحق. كما يتأثر الضمير بباعث الباطل والمعاصي؛ الذي يجعله خاضعاً للهوى يأتمر بأمره وينوي بنيته، وهذه هي: (غفلة الضمير)^(٢٠).

وبهذا فالنية أو القصد أو الإرادة عند الغزالي تمثل المرحلة الثانية التي تلي الباعث أو الخاطر؛ لأنّها استجابة له، وهي أخص ما في القلب؛ لذلك يرى الباحث أنّه (الضمير)، وهو: الجوهر النفيس الموجود في القلب أو بعبارة أخرى هو: نفس النفس. وأنّ الضمير يمرّ بمرحلة الباعث ثم يمرّ بالنية استجابة للباعث.

ثانياً: مفهوم الضمير بين القدرة الإلهية القديمة والقدرة الحادثة عند الغزالي:

يبيّن الغزالي أنّ الضمير الإنساني أوجدته قدرة الله ﷻ، كما أنّه إرادة للقدرة الحادثة تؤثر في اختيارها وتحدد سلوكها. والضمير يخضع للقدرة الإلهية؛ لأنّه عملٌ من أعمال القلب؛ يترتب عليه ثوابٌ وعقابٌ، خاصة عند مروره بمراحله التي تبدأ بالمعرفة، ثم الخاطر والباعث، ثم النية والقصد، ثم العمل الموافق للشرعية أو المخالف لها.

والضمير يأتمر بأوامر القدرة الإلهية التي خلقته وخلقت معه القدرة الحادثة للعبد، لذلك فالضمير يوجه القدرة الحادثة بما لها من إرادة وقدرة واستطاعه موهوبة من الله ﷻ.

وبهذا يظهر أنّ الضمير عند الغزالي قوة مرتبطة بالقدرة الإلهية والقدرة الحادثة، فمتى وافق الضمير القدرة الإلهية؛ استحق الثواب، ومتى خالفها استحق العقاب. وهذا ما سنعرض له في هذا المبحث بمشيئة الله ﷻ.

حيث يقرر الغزالي أنّ جميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله ﷻ ونور من أنوار ذاته^(٢١). وأنّه من شكر غير الله ﷻ فكأنه لم يعرف المنعم ولم يتيقن أن الواسطة مقهور مسخر

بتسخير الله ﷻ؛ إذ سلط الله ﷻ عليه ذواعي الفعل ويسر له الأسباب فأعطى وهو مقهور، ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله ﷻ في قلبه أن صلاح دينه ودينه في فعله. فمهما قوي الباعث أوجب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوي الذي لا تردد فيه، والله ﷻ خالق للبواعث ومسخر القدرة للانتهاض بمقتضى البواعث^(٢٢).

ويقرن الغزالي بين القدرة والاختيار؛ فيذهب إلى أن انفراد الله ﷻ باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب، بل الله ﷻ خلق القدرة والمقدور جميعاً، وخلق الاختيار والمختار جميعاً. فأما القدرة: فوصف للعبد وخلق للرب ﷻ وليست بكسب له، وأما الحركة: فخلق للرب ﷻ ووصف للعبد وكسب له؛ فإنها خلقت مقدورة بقدرة هي وصفه وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسباً، وكيف تكون جبراً محضاً وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية أو كيف يكون خلقاً للعبد وهو لا يحيط علماً بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد في الاعتقاد وهو أنها مقدورة بقدرة الله ﷻ اختراعاً وبقدرة العبد على وجه آخر من التعليق يعبر عنه بالاكتساب^(٢٣).

وبذلك نفهم من كلام الغزالي أن العبد يملك اختياراً لأفعاله وسلوكه، وله إرادة وقدرة خاضعة لإرادة الله ﷻ وقدرته؛ لأنها تتحرك وفق انبعاث داخلي يأمرها بطاعة الله ﷻ أو مخالفة أوامره. وهذه القوى إنما هي قوى الضمير التي ترتبط بقدرة الإنسان الحادثة وفقاً للقدرة الإلهية، ويُعد هذا هو الدليل القوي على وجود الضمير في فكر الإمام الغزالي، وربطه بالقدرة الإلهية القديمة التي توجه القدرة الحادثة للعبد. وسوف نزيد ذلك بياناً في المطلب التالي بإذن الله ﷻ.

كما يتبين لنا دور الضمير في تحريك خواطر ونية وقصد العبد، وأنها لولا وجود القدرة الحادثة التي خلقها الله ﷻ في العبد لما استطاع العبد حركة ولا سكوناً. كما يظهر ارتباط الضمير بالعلم، وأنه نتاج له، لأن العلم يشكل معارف الضمير ويؤثر فيه ويحوّله إلى قوة ضابطة تتحكم في سلوكه.

المبحث الثالث: دور الضمير بين الوقاية والعلاج عند الإمام الغزالي.

انصبّ اهتمام الإمام الغزالي على دور الضمير في إصلاح النفوس وصلاح الأعمال، وتحقيق اليقظة، والحث على الطاعة، والتوبة والندم عند الوقوع في المعصية؛ فالضمير عند الغزالي يقي الإنسان من الزلل والخطأ، ويعالجه إذا وقع فيهما.

وبناء على إدراكنا لتصور الغزالي للضمير الإنساني، فإنه يقود صراع دائم بين الحق والباطل؛ لأنَّ قلب الإنسان كما يصوره الغزالي، مثل قبة مضروبة تنصب إليها الأحوال من كل باب، أو هو كهدف ترمى عليه السهام من كل جانب، وبالنسبة لمثال المرأة، هو كمرآة منصوبة تحتاز عليها أصناف الصور المختلفة، فتترأى فيها صورة بعد صورة، ولا تخلو عنها الصور أبداً^(٢٤).

وبما أن القوة المحركة وهي (الضمير) تخضع لتأثير القوى المدركة؛ فإن لتلك الصور والآثار دورها السلوكي، فالخيلات الحاصلة في النفس تبقى، وينتقل الخيال من شيء إلى شيء آخر، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر.

ويرى الغزالي أنَّ أهم تلك الآثار وأخطرها هي: الضمير أو كما يعبر عنها: الخواطر المحركة؛ لأنَّ الخاطر هو الذي يحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية^(٢٥).

وتلك الخواطر تنقسم إلى ما يدعو للخير والصدق والحق، وتسمى إلهاما، ويسمى الداعي إليها ملكا، ويسمى اللطف الرباني الذي يتهبأ به القلب لذلك توفيقا، أو: إلى ما يدعو إلى الشر والكذب والباطل، ويسمى وسواساً، ويسمى الداعي إليها شيطانا، ويسمى الاستعداد له إغواء وخذلانا.

والغزالي يستند في تصويره للتنافس الدائم بين الإلهام والوسواس، وكلَّ ذلك في ضمير الإنسان إلى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقوله ﷺ: «إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء»^(٢٦).

وهذا التجاذب دائم في النفس الإنسانية، وهو من أعمال الضمير الوقائي أو العلاجي، وباعتبار ميلها إلى جانب من الجوانب يكون ترقيقها أو تدنيها، وتكون زكاتها أو تدنسها، والنفس الفطرية مستعدة لقبول كل ذلك قبولا متساويا لا يترجح أحدهما على الآخر^(٢٧).

وترجيح الإلهام ترجيحاً كلياً ينفي الخواطر السيئة والوسواس الرديئة هو ما يعبر عنه الشارع بـ: (النفس المطمئنة)^(٢٨)، وهي بداية تحقيق الكمال الإنساني، وتحقيق الكمال الإنساني من أهم أدوار الضمير.

ويظهر دور الضمير الوقائي والعلاجي عند الغزالي من خلال إدراكه أنَّ أهم المرجحات المعرفية لجانب الإلهام هي معرفة الإنسان لنفسه باعتبار التزكية، وتلك المعرفة هي اجتماع العلم بالكمالات الممكنة مع الاطلاع على النقص الموجود، وبلازدواج بين هاتين المعرفتين يحقق الضمير التزكية.

أما المعرفة الأولى: فهي علم الإنسان بنفسه وخصائصها، وما فطرت عليه من طباع، وما مكنت منه قوى، فإن ذلك كله حاث على النهوض به من كبوته، والترفع من أن يسقط في: (ث) [التين: ٥]، بعد أن رفعه الله ﷻ إلى: (ث ث) [التين: ٤]. يقول الغزالي مبينا قيمة هذه المعرفة: (من عرف نفسه فقد عرف ربه، وعرف صفاته وأفعاله، وعرف مراتب العالم، ومبدعاته ومكوناته، وعرف الملائكة ومراتبهم، وعرف لمة الملك ولة الشيطان والتوفيق والخذلان، وعرف رسالة النبوة)^(٢٩) وقد ألف الغزالي في هذا النوع من المعرفة مجموعة كتب منها: (معراج القدس في مدارج معرفة النفس)، و(معراج السالكين)، و(كيمياء السعادة)، بالإضافة إلى كتابين في الإحياء صدرَ بهما ربع المهلكات هما: (شرح عجائب القلب) و(رياضة النفس).

أما المعرفة الثانية: فهي المنطلق السلوكي الأول، فعجب الإنسان بنفسه وشعوره بكماله هو الحجاب الأكبر الحائل بين الإنسان والتحقيق بالكمالات المهيأ لها، قال الغزالي: (السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمير، والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد، وقد ظفر بمrade)^(٣٠). ولا يخفى أن كل ذلك من أفعال الضمير الإنساني.

ولهذا، فإن أول درجات العلاج عند الغزالي هي تلك اليقظة الروحية التي تحصل لصاحبها من ضميره؛ فترى حقيقة نفسه، وإذا أراد الله ﷻ بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه^(٣١)؛ ولكن البصيرة إن لم تكن نافذة، وكان النظر إلى العيوب ضعيفاً احتاج ذلك إلى أطراف خارجية تبصره بتلك العيوب.

من خلال ما سبق يمكننا القول: إنَّ الضمير عند الغزالي ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الضمير الوقائي:

وهو الضمير الذي يستبق الحدث أو السلوك؛ فيظهر الرغبة في الإيمان، أو يظهر الرغبة في الكفر؛ ثم تأتي مرحلة الإجابة الإلهية؛ فيُظهر الشكر والعرفان لله ﷻ إن كان مؤمناً، أو: يُظهر الجحود والعصيان لله ﷻ إن كان كافراً، وتأتي الاستطاعة من الله ﷻ على قدر رغبة العبد خيراً فخيئراً أو: شراً فشرراً.

وهذه الملكة الأمرة تمثل وقاية للإنسان مما قد يلحق به في حالة ترك فعل الخير، أو في حالة إتيان الشر؛ لذلك سُميت بالضمير الوقائي.

والغزالي يوضح ذلك حين يقرر أنَّ اللذة الناقصة تحرك الرغبة في اللذة الكاملة؛ فيستحث العبد على العبادة الموصلة إليها؛ فيستفيد العبد بشدة الرغبة فيها إلى ما يوصله إلى نعيم الجنان^(٣٢).

كما يظهر ذلك جلياً عند حديثه عن أنّ (قُوَّة الرغبة) في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى، وحب ما أحبه، والمجاهدة فيه؛ تساعد العبد على النهوض من كبوته، وأنّ ذلك يمكن تحصيله بالرياضة، ويجب تحصيله على كل عاقل؛ لأنّ هذا هو الدواء الكلي^(٣٣).

ويؤكد الغزاليّ على دور الضمير في اجتلاب النافع واجتناب الضار حين يذهب إلى أنّ نيات الناس وبواعثهم في الطاعات أقسام: إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف؛ فإنه يتقي النار. ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء والميل إلى الموعود في الآخرة، وهو الرغبة في الجنة^(٣٤).

ويضرب الغزاليّ مثلاً للضمير الذي يُظهر الرغبة في العصيان، فيذهب إلى أنّ شدة الرغبة في الجاه والمال يتبعها أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات، ويتولد بينهما: آفة الرياء، وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى: الحقد، والحسد، والعداوة، والبغضاء، ثم يفضي ذلك بصاحبه إلى: اقتحام البغي، والمنكر والفحشاء^(٣٥).

وقرب من ذلك قوله: (إنّ الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة؛ ويسمى ذلك: حراماً، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلا ويعرضه لطول الحساب؛ ويسمى ذلك: حلالاً. والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضاً عذاب)^(٣٦).

والغزاليّ يشير إلى الضمير الذي يستبق الحدث أو السلوك؛ فيظهر الرغبة في الإيمان، أو يظهر الرغبة في الكفر؛ فيبرز دور الضمير في الحث على الطاعة أو المعصية، حين يتحدث عن رغبة العبد في التقرب إلى الله ﷻ بعمل صالح، ورغبته في الحمدة من الناس على هذا العمل الصالح؛ يقول: (فاجتمع الباعثان... فقد عصى بإجابة باعث الرياء، وأطاع بإجابة باعث الثواب... فله ثواب بقدر قصده الصحيح، وعقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحبط أحدهما الآخر)^(٣٧).

القسم الثاني: الثاني: الضمير العلاجي:

وهو الضمير الذي يُعالج أفعال الإنسان وتصرفاته الخاطئة بعد وقوع الحدث من العبد والعقاب من الله ﷻ، إمّا بالندم على فعلٍ ما والتوبة منه، وإظهار الرغبة في الإيمان وفعل الخيرات. وفي هذا يمثل الضمير قُوَّة مؤبّنة ومحاسبة وموجّهة ومعاقبة. وهو عبارة عن زمرة من الوجدانات، وهذا الضمير هو الذي يشعُرنا بالارتياح حين نأتي خيراً، وبالاستياء حين نقترف شرّاً^(٣٨).

ويعرر الغزاليّ أنّ المعصية قد تبعث في العبد يقظة الضمير؛ فينكشف له بالعلم ما فعل، ويظهر له أنّه لا بد من التوبة. من هنا يتوجه إلى الله ﷻ تائباً نادماً عازماً على ألا يعود. يقول

الغزالي: (... وإنما يغفرها الندم والحياء والخوف فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعث جنود الخوف والحياء من مكانهما؛ فتدل بها بنفسك، وتستكين تحت الحجلة قلبك، وتقوم بين يدي الله عز وجل قيام العبد المجرم المسيء الأبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف^(٣٩). إن الضمير يعالج موضوع المعصية بالتوبة التي فرضت عليه أحوال الندم والبكاء والتقرب إلى الله عز وجل. من هنا يصدر من الضمير أوامر كثيرة بالبعد عن همزات الشيطان، ومحاربتها، واتباع أمر الله عز وجل في كون الشيطان عدواً للبشر.

لذلك يقرر الغزالي أن المعصية حجاب، ولا يرفعها إلا التوبة، وتصميم العزم على ترك العود، وتحقيق الندم على ما مضى، ورد المظالم، وإرضاء الخصوم؛ لأن من لم يصحح التوبة؛ ولم يهجر المعاصي الظاهرة، وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمشاهدة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب^(٤٠).

ويضرب الغزالي مثلاً على يقظة الضمير المعالج بتوبة نبي الله آدم عليه السلام؛ حين يؤكد أن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب: مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، فلا غرو إن أذنّب آدمي واجترم، ومن أشبه أباه فما ظلم، ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر، وعمر بعد أن هدم؛ فليكن الاقتداء به، ولقد قرع آدم عليه السلام سن الندم، وتندم على ما سبق منه وتقدم، فمن اتخذ قدوة في الذنب دون التوبة؛ فقد زلت به القدم، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين، والتجرد للشر دون التلافي سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة آدميين. وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان، فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان^(٤١).

الخاتمة

(أسأل الله ﷻ حسننها)

الحمد لله في البدء والختام، حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على من ختم به الله ﷺ الرسل والرسالات سيدنا محمد ﷺ.

أما ما توصل إليه البحث من نتائج فمئنها:

- (١) مفهوم الضمير عند أبي حامد الغزالي لم يخرج عن مفهومه عند الأشاعرة، فقد استخرج الغزاليّ معاني لفظة الضمير من خلال فهمه للقرآن الكريم، ودراسته لعلم الكلام والفلسفة.
- (٢) الغزاليّ يجعل النفس، والروح، والقلب، والعقل كأنه مرادف للضمير في بعض صفاته؛ لأنّها اللطيفة التي تعرف بها حقائق الأشياء. ويؤكد على أنّ: النفس، والروح، والقلب، والعقل، تستعمل بمعنى واحد على سبيل التجوّز.
- (٣) يرى الإمام الغزالي أنّ العلاقة وطيدة بين الضمير والنفس والأخلاق، وأنّ الضمير يشترك مع النفس في أنّهما مصدر كلّ خلق وسلوك، ومن ثمّ فالصلة بين الضمير والنفس والأخلاق صلة منطقية؛ لإقامة حياة أخلاقية تهتم بالحساب والثواب والعقاب.
- (٤) كشف الإمام الغزالي لنا عن: مفهوم الضمير على أنّه لطيفة نفسية روحية. وأنّ الضمير مكانه القلب. وأنّ وظيفة الضمير هي الإدراك والتمييز بين الخير والشرّ.

التوصيات:

توصي هذه الدّراسة بعددٍ من التوصيات، منها:

- (١) تضمين نظرية الضمير عند الإمام الغزاليّ في المناهج الدراسية، ولاسيما مناهج التربية الإسلامية؛ لبيان دوره في إصلاح الفرد والمجتمع.
- (٢) إجراء دراسة مقارنة بين نظرية الضمير عند الإمام الغزالي كرؤية إسلامية، وبين النظريات الغربية للضمير.

الهوامش:

- (١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م، (١٩ / ٣٢٢).
- (٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ. (٦ / ١٩١).
- (٣) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ. (٦ / ١٩٢).
- (٤) محمد رضا: أبو حامد الغزالي، (ص: ٥).
- (٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥ م. (١٩ / ٣٢٦).
- (٦) ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م، (١٢ / ١٧٤).
- (٧) ابن كثير: البداية والنهاية، المحقق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م، لابن كثير، (١٢ / ١٩٦). وينظر: إتحاف السادة المتقين لشرح أسرار علوم الدين، للزبيدي، (ص: ٢٧).
- (٨) ابن فارس: معياريس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر ١٩٧٩م. مادة (ض م ر)، (٣ / ٣٧١).
- (٩) الخليل: العين، تحقيق: مهدي المخزومي-إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال. (٧ / ٤١).
- (١٠) المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، (ص: ٢٢٣).
- (١١) الغزالي: إحياء علوم الدين، تحقيق: سيد عمران / دار الحديث / القاهرة ٢٠٠٤م، (١ / ٢١٩).
- (١٢) المرجع السابق، (٢ / ١٨٢).
- (١٣) المرجع السابق، (١ / ٢١٩).
- (١٤) المرجع السابق، (١ / ٢١٩).
- (١٥) الغزالي: إحياء علوم الدين، تحقيق: سيد عمران / دار الحديث / القاهرة ٢٠٠٤م، (٢ / ٢٤٩).
- (١٦) المرجع السابق، (٣ / ٨).
- (١٧) المرجع السابق، (٤ / ٣٦٥).
- (١٨) المرجع السابق، (٤ / ٣٦٥).
- (١٩) الغزالي: إحياء علوم الدين، تحقيق: سيد عمران / دار الحديث / القاهرة ٢٠٠٤م. (٤ / ٣٧٣) وما بعدها.
- (٢٠) ينظر: المرجع السابق، (٤ / ٣٨٤). وينظر: المستصفى، للغزالي، (ص: ٥٠).

- (٢١) الغزالي: إحياء علوم الدين، تحقيق: سيد عمران / دار الحديث / القاهرة ٢٠٠٤م. (٤ / ٤٣٤)
- (٢٢) المرجع السابق، (١ / ٢١٩).
- (٢٣) المرجع السابق، (١ / ١١١).
- (٢٤) السابق، ٢٦/٣.
- (٢٥) الغزالي: إحياء علوم الدين، تحقيق: سيد عمران / دار الحديث / القاهرة ٢٠٠٤م، ٢٧/٣.
- (٢٦) أخرجه الترمذي في (سننه): أبواب القدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، (١/٦٥٦، ح رقم ٢١٤٠).
- (٢٧) الغزالي: إحياء علوم الدين، تحقيق: سيد عمران / دار الحديث / القاهرة ٢٠٠٤م، ٢٧/٣.
- (٢٨) وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَأَدْخِلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾ (الفجر: ٣٠-٣٢). انظر: الرسالة اللدنية ص ١٠٣.
- (٢٩) الغزالي: معارج القدس، تحقيق: محمد أبو العلا / مكتبة الجندي / القاهرة / ١٩٦٨م، ص ٧.
- (٣٠) الغزالي: إحياء علوم الدين، تحقيق: سيد عمران / دار الحديث / القاهرة ٢٠٠٤م، ٣٦٩/٣.
- (٣١) المرجع السابق، ٦٤/٣.
- (٣٢) المرجع السابق، (٢ / ٢٨).
- (٣٣) الغزالي: إحياء علوم الدين، تحقيق: سيد عمران / دار الحديث / القاهرة ٢٠٠٤م. (٣ / ١٩٩).
- (٣٤) المرجع السابق، (٤ / ٣٧٥).
- (٣٥) المرجع السابق، (٣ / ٨٠).
- (٣٦) المرجع السابق، (٣ / ٢٢٠).
- (٣٧) الغزالي: إحياء علوم الدين، تحقيق: سيد عمران / دار الحديث / القاهرة ٢٠٠٤م. (٣ / ٣٠٩).
- (٣٨) توفيق الطويل: الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، (ص: ١٦١).
- (٣٩) الغزالي: إحياء علوم الدين، تحقيق: سيد عمران / دار الحديث / القاهرة ٢٠٠٤م. (١ / ١٦٦).
- (٤٠) الغزالي: إحياء علوم الدين، تحقيق: سيد عمران / دار الحديث / القاهرة ٢٠٠٤م. (٣ / ٧٥).
- (٤١) المرجع السابق، (٤ / ٢).

المراجع:

- ابن فارس: مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر ١٩٧٩م. مادة (ض م ر)، (٣/ ٣٧١).
- ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م، (١٢/ ١٧٤).
- الترمذي: الجامع الكبير المعروف بسنن الترمذي، تحقيق: عصام موسى هادي، دار الصديق، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
- الخليل: العين، تحقيق: مهدي المخزومي-إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال. (٧/ ٤١).
- الذهبي: سير أعلام النبلاء، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الغزالي: إحياء علوم الدين، تحقيق: سيد عمران / دار الحديث / القاهرة ٢٠٠٤م، (١/ ٢١٩).
- الغزالي: معارج القدس، تحقيق: محمد أبو العلا / مكتبة الجندي / القاهرة / ١٩٦٨م، ص ٧.
- المنائي: التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، (ص: ٢٢٣).
- الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م، (١٩/ ٣٢٢).
- الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ. (٦/ ١٩١).
- توفيق الطويل: الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، (ص: ١٦١).
- محمد رضا: أبو حامد الغزالي، (ص: ٥).